
المنظومة
ALMANDUMAH



# نيابة بيت المقدس

الدكتور يوسف درويش غوانمة

## تأسيس النيابة :

تمكنت دولة المماليك الناشئة في مصر من بسط نفوذها على بلاد الشام، بعد انهيار المقاومة الايوبية، وتصديهم للتتار وتدمير قواتهم في معركة عين جالوت سنة 659 هـ ( 1260 م ) . فورث المماليك والحالة هذه املاك اسيادهم الايوبيين، وتشكلت في بلاد الشام ست نيابات، قامت على انقاض الممالك الايوبية التي كانت قائمة فيها . ولم تتكون هذه النيابات دفعة واحدة بل جاءت على فترات تبعا للظروف التي كانت توجب اقامتها، وهذه النيابات هي : نيابة دمشق، ونيابة طرابلس، ونيابة حماه، ونيابة الكرك، ونيابة صفد (1) .

ولكن الناصر محمد بن قلاوون اقام نيابتين جديدتين الأولى في غزة (2)، والثانية في بيت المقدس . وولى في نيابة بيت المقدس الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي ( ت 745 )، واضاف اليه

---

1) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ط مصورة عن الطبعة الاميرية، القاهرة، ج 4 ص 91، 180 . الخالدي : كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا، مخطوط، مكتبة جامعة القاهرة، لوحة 7 .

2) فأبو المحاسن يقول : ( حتى ان مدينة غزة هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة وكانت قبل كآحاد قرى البلاد الشامية، وجعل لها نائبا وسمي بملك الامراء، ولم تكن قبل ذلك الا ضيعة من ضياع الرملة ) . ( النجوم الزاهرة، ج 9 ص 193 . ويذكر ابو المحاسن ان نائبها سنة 699 هـ كان الأمير ركن الدين الجمالي ( النجوم الزاهرة، ج 8 ص 190 ) .

وظيفة ( ناظر الحرمين الشريفين ) (3) . وكانت نيابة بيت المقدس تابعة لنيابة دمشق ، والتولية في معظم وظائفها من نائب دمشق (4) ، وبقيت على هذه الحال حتى اصبحت نيابة مستقلة كغيرها من نيابات بلاد الشام . وقد تضاربت الآراء حول تحديد التاريخ الذي اصبحت فيه نيابة مستقلة ، ثم ما هي الاسباب التي دعت السلاطين المماليك الى جعلها كذلك ؟ .

فالنصوص التي لدينا متضاربة ، فمجير الدين الحنبلي ذكر في كتابه الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل أن الناصر محمد بن قلاوون ولى الأمير علم الدين سنجر الجاولي ( نظر الحرمين الشريفين والنيابة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام (5) بحدود سنة 713 هـ ( 1313 م ) (6) . وذكر ايضا ان الأمير تمراز المؤيدي كان يتولى هذا المنصب في سنة 777 هـ ( 1375 م ) (7) . وفي سنة 782 هـ ( 1380 م ) تولاه الأمير بدر الدين حسن بن عماد الدين العسكري ، اما الأمير ناصر الدين محمد بن بهادر فكان متوليا لنيابة بيت المقدس في سنة 789 هـ ( 1387 م ) . وذكر ايضا ان الأمير شرف الدين موسى بن بدر الدين حسن تولى النيابة في سنة 793 هـ ( 1390 م ) ثم شغل هذا المنصب في سنة 795 هـ ( 1392 م ) الأمير بلوى الظاهري ، وفي السنة التالية 796 هـ ( 1393 م ) تولاه الأمير جانتمر الركني الظاهري ، وفي رجب من نفس السنة تولى النيابة بأمر من السلطان برقوق الأمير شهاب الدين احمد اليغموري (8) .

أما الخالدي فذكر في كتابه المقصد الرفيع المنشأ ان نيابة دمشق فيها ست نيابات هي : نيابة القدس ، ونيابة صرخد ، ونيابة بعلبك ، ونيابة حمص ، ونيابة عجلون ، ونيابة مصياف ، ولكن نيابة القدس اصبحت طبلخاناه في سنة 767 هـ ( 1365 م ) ، وفيما بعد صار متوليها من الابواب الشريفة في القاهرة ، ويضاف اليه الرملة ونابلس (9) .

ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى ان النيابة في بيت المقدس استحدثت في سنة 777 هـ ( 1375 م ) ونيابتها إمرة طبلخاناه ، وجرت العادة ان يضاف اليها نظر القدس والخليل (10) .

---

3) مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط مكتبة المحتسب ، عمان ، 1973 ، ج 2 ص 272 .

4) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

5) مجير الدين الحنبلي ، الانس الجليل ، ج 2 ص 272 .

6) ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج 1 لوحة 98 .

7) مجير الدين الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 2 ص 272 . وانظر : ابو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج 15 ص 388 .

8) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 272 .

9) الخالدي ، المقصد الرفيع المنشأ ، لوحة 147 ( مخطوط ) .

10) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 .

امير طبلخاناه : هو الأمير الذي يكون بخدمته اربعون مملوكا ، وتدق بابه بعد صلاة المغرب كل يوم ثلاثة احمال طبلخاناه ونفيران وتوقد المشاعل . والطبلخاناه تعني الفرقة الموسيقية السلطانية وهي مرتبة حربية من مراتب ارباب السيوف في الدولة المملوكية . ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص 113 ) .

ولكن المقريزي يذكر في احداث سنة 796 هـ ( 1393 م ) ، ان السلطان برقوق انعم على ( قردم الحسيني بنيابة القدس ) (11) بينما كان في غزة في طريقه لمحاربة التتار بقيادة تيمورلنك الذي اخذ يضغط على الحدود الشرقية للدولة المملوكية (12) .

ومن المعروف ان المماليك ورثوا عن اسيادهم الايوبيين مهمة الجهاد ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وخاض سلاطينهم معارك طاحنة ضدهم ، حتى تمكن السلطان الأشرف خليل من فتح عكا آخر المعاقل الصليبية في فلسطين (13) وبذلك تم تطهير بلاد الشام من الفرنج نهائيا سنة 690 هـ ( 1291 م ) . ولكن الصليبيين لم ييأسوا ، بل اخذوا يقومون بأعمال عدوانية ضد المماليك منطلقين من قبرص حينا ، ومن الدويلات الاوروبية احيانا اخرى ، ثم زادت اتصالاتهم بالتتار ، وصاروا يعملون على اقامة حلف معهم كي تبقى حدود دولة المماليك الشرقية في خطر مستمر (14) . ولتمكين الصليبيين من استعادة الأراضي التي في بلاد الشام وعلى رأسها بيت المقدس ، وفعلا اقيم تحالف بين التتار والغرب الاوربي ومملكة ارمينية الصغرى والقوى الصليبية في بلاد الشام لهذه الغاية (15) .

اذن فكرة السيطرة على بيت المقدس ظلت املا يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي فبعد سقوط عكا قاموا بحصار اقتصادي ضد المماليك ، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحقيق هذه الغاية (16) واعنف هذه الغزوات تلك التي شنها بطرس لوزجنان سنة 767 هـ ( 2365 م ) على مدينة الاسكندرية ، فاجتاحت قواته المدينة ثلاثة ايام ، وقتلت ودمرت واسرت الكثير من اهالي المدينة ، وبعد ان تم لهم ما ارادوا غادروا الاسكندرية الى بلادهم (17) . وفي سنة 769 هـ ( 1367 م ) قام الفرنج بحملة ضد طرابلس الشام ، فدخلوا المدينة ونهبوا بعض الاسواق وحملوا معهم بعض الاسرى وقتلوا

---

11) المقريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .
12) المقريزي : نفس المصدر ، ص 813 .
13) المقريزي : السلوك ، ج 1 ق 3 ص 764 وما بعدها . Atiya, The Crusade in the Later Middle ages
New York, 1970 P. 30
يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الاولى ، القسم السياسي ، ص 134 .
14) المقريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .
سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، سلسلة اعلام العرب ص 75 ، 89 ، 95 .
15) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص 96 .
16) المقريزي : السلوك ، ج 3 ق 2 ص 813 .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 12 ص 52 .
17) النويري الاسكندراني : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، الهند ، 1970 م ج 2 ص 113
المقريزي : السلوك ، ج 3 ق 1 ص 109 .

آخرين من سكان المدينة (18) . وهكذا دخلت الدولة المملوكية حربا بحرية مع الفرنج ناهيك عن الحصار الاقتصادي الذي أيده البابا وباركه .

ونتيجة لغزوة بطرس لوزجنان على الاسكندرية ، استلزم الأمر ان يتولى الاسكندرية امير كبير ، كي يتمكن من الوقوف في وجه الاخطار الصليبية فولى السلطان الأشرف شعبان الأمير بكتمر الشريفي نيابة الاسكندرية ( وهو ول نائب ولي نيابة الاسكندرية من النواب ) (19) .

لقد اظهر المماليك تفهما كبيرا للخطرين الصليبي والتتاري ، واستعدوا لذلك فالظاهر بيبرس اقام خطا دفاعيا قويا على الحدود الشرقية لدولته وشحنه بالرجال والعتاد ، واحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالقاهرة ، كما اقام خطا دفاعيا آخر يمتد من الشويك ، والكرك جنوبا الى اعالي العاصي شمالا ، كي يقف في وجه الخطرين التتاري والصليبي معا (20) . فالصليبيون هددوا السواحل المصرية والشامية ، واجتاحوا مدنه وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية . أما التتار فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم الى بلاد الشام والديار المصرية . ولكن سرعان ما تتصدى لهم القوات المملوكية فيعودون القهقرى الى بلادهم ، وان كانوا قد وصلوا الى غزة واجتاحوا دمشق بقيادة محمود غازان سنة 699 هـ ( 1299 م ) (21) . ثم اجتاحوها مرة اخرى سنة 803 هـ ( 1400 م ) بقيادة تيمورلنك ، وسفكوا دماء الكثير من سكانها وسكان المدن الفلسطينية الأخرى . ولكنهم لم يدخلوا بيت المقدس فسلم من عبثهم وتدميرهم .

ان الهدف الحقيقي من وراء الهجمات الصليبية وتحالفهم وتعاونهم مع التتار اعادة سيطرتهم على فلسطين وبيت المقدس بالذات ، فغزوة القبارصة على الاسكندرية سنة 767 هـ ( 1365 م ) كان غرضها الوصول الى بيت المقدس عن طريق القاهرة (22) . وبعد فشلهم حول الفرنج نشاطهم نحو بلاد الشام ، فهاجموا طرابلس ونهبوها ، ثم هددوا بيت المقدس نفسه ، حيث اجتاحت قواتهم يافا فرصة

---

18) المقريزي : السلوك ، ج 3 ق 1 ص 149 .
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 11 ص 52 .

19) النجوم الزاهرة ، ج 11 ص 30 . ويقول المقريزي ( وهو اول من باشرها نيابة سلطنة ) . ( السلوك ج 3 ق 1 ص 115 ) . وانظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ط دار الشعب ، القاهرة 1960 ، ص 184 ، 185 .

20) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص 94 ، احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر والشام ، ص 208 . يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الأردن ( القسم السياسي ) ، ص 57 .

21) يقول المقريزي ( امتدت التتر الى القدس والكرك تنهب وتأسر ) . السلوك ، ج 1 ق 3 ص 890 . ويقول ايضا : ( نهبت التتار الاغوار حتى بلغوا الى القدس وعبروا غزة وقتلوا بجامعها خمسة عشر رجلا وعادوا الى دمشق وقد اسروا خلقا كثيرا ) . السلوك ، ج 1 ق 3 ص 896 . وانظر : ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ص 122 .

22) Atiya, op, Cit. P. 357

ويذكر النويري الاسكندراني ان الذين اشتركوا مع القبارصة في غزوة الاسكندرية : البنادقة 14 غرابا ، الجنوية 2 غرابين ، الروادسة 10 غربان ، الفرنسيسيين 5 غربان .
( الالمام بالاعلام ، ج 2 ص 230 ) .

القدس على البحر المتوسط في سنة 813 هـ ( 1410 م ) (23) ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تسللت قوات فرنجية الى القدس نفسه عن طريق الحج (24) ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق حلمهم القديم .

ولما ادرك السلطان الاشرف شعبان عظم الخطر الذي يهدد بيت المقدس من الصليبيين ، عمد الى رفع مرتبة نائبها فجعله برتبة طبلخاناه (25) ، ولكن النيابة بقيت مرتبطة بنائب دمشق . وقد زود السلطان نائب بيت المقدس بالقوات والعتاد كي يتمكن من صد الاخطار التي تهددالبلدالمقدس . الا ان المقريزي ذكر في سنة 796 هـ ( 1393 م ) ان السلطان الظاهر برقوق انعم على الأمير قردم الحسيني بنيابة القدس ، وذلك في غزة اثناء توجهه لمحاربة التتار بزعامة تيمور لنك .

وهذا النص الذي اورده المقريزي ، هو اول اشارة صريحة عن تولية نائب لنيابة بيت المقدس من قبل السلطان في القاهرة ، وسببه الخطر التتاري الذي اخذ يهدد دولة المماليك وبلاد الشام ويضغط عليها بشدة . ان خوف الظاهر برقوق على المدينة المقدسة ، دفعه الى استحداث نيابة مستقلة فيها ، كي تستطيع الوقوف في وجه الاخطار الداهمة تماما كما فعل السلطان الاشرف شعبان بعد غزوة بطرس لوزجنان للاسكندرية فاستحدث نيابة الاسكندرية وجعل فيها اميرا كبيرا وزوده بالرجال والعتاد ، للوقوف في وجه الخطر الفرنجي الذي ما فتيء يهدد السواحل الشامية والمصرية معا .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ، ان مجير الدين الحنبلي ذكر ان توليه النيابة والنظر في بيت المقدس كان يتم من قبل نواب الشام ، ولم يزل الأمر كذلك الى نحو 800 هـ ( 1397 م ) فأصبح تولية النائب من قبل السلطان في القاهرة (26) . والملاحظ هنا ان التاريخين لدى المقريزي والحنبلي متقاربان ، مما يدعم وجهة النظر التي ذهبنا اليها . اضف الى ذلك ان المقريزي وابا المحاسن يشيران بعد هذا التاريخ الى تولية نواب في نيابة بيت المقدس كغيرها من نيابات بلاد الشام (27) . ففي سنة 844 هـ ( 1440 م ) ذكر

---

23) المقريزي : السلوك ، ج 4 ق 1 ص 143 .

24) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج 2 ص 317 .

25) وقد ايد ذلك المؤرخان الخالدي والقلقشندي معا ، اما التاريخ الذي ذكره القلقشندي من ان نيابة بيت المقدس استحدثت في سنة 777 هـ ( 1375 م ) ، فاننا لا نميل الى الأخذ به ، فمن دراستنا للاحوال السياسية والعسكرية في هذه السنة ، لم نجد فيها من الأمور الهامة التي دفعت السلطان لاستحداث نيابة في بيت المقدس ، فلا يوجد ما يبرر هذا العمل .

القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 199 . )

الخالدي : المقصد الرفيع ، لوحة 147 مخطوط ) .

26) مجير الدين الحنبلي ، الانس الجليل ، ج 2 ص 282 .

27) وعلى سبيل المثال انظر : المقريزي : السلوك ، ج 3 ق 3 ص 1038 . ج 4 ق 1 ص : 81 ، 88 ، 109 ، 138 ، 188 ، 266 ، 446 ، 451 ، 483 ، ج 4 ق 2 ص 975 ، ج 4 ق 3 ص 1161 . وانظر ايضا : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 12 ص 231 ج 13 ص 75 ، 90 ، 105 ، 126 . ج 14 ص 10 ، 262 ، ج 15 ص 76 ، 291 ، 294 ، 318 ، 322 ، 331 ، 371 ، 372 ، 384، 397 ، 389 ، 448 ، 532 ، ج 16 ص 127 ، 130 . وانظر كذلك : ابن الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج 2 ص 287 ، ج 3 ص 44 ، 348 .

المقريزي النيابات في بلاد الشام على النحو التالي : نيابة الشام ، ونيابة حلب ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حماه ، ونيابة صفد ، ونيابة غزة ، ونيابة القدس ، ونيابة الكرك (28) . اما ابو المحاسن فزاد عليها نيابة ملطية (29) . ومن هنا نجد انه اصبح في فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد ، ونيابة بيت المقدس ، ونيابة غزة ، وهذا يناقض ما ذهب اليه لويس وغيره من الباحثين ، من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تشتمل على نيابتين فقط ، هما نيابة غزة ونيابة صفد (30) .

وهكذا فالسلاطين المماليك ، اولوا المدينة المقدسة اهمية خاصة فجعلوها نيابة مستقلة في سنة 796 هـ ( 1393 م ) على راسها امير كبير ، كي يقف بقوة وحزم امام الاخطار والاطماع الصليبية والتتارية معا .

## الوظائف في نيابة بيت المقدس

### نائب السلطنة :

اصبح بيت المقدس نيابة مستقلة سنة 796 هـ ( 1393 م ) ، على راسها امير كبير ولايته بمرسوم شريف من القاهرة . وكان نائب السلطنة يقيم في ( دار النيابة ) (31) ، الواقعة بجانب الرواق العلوي من المسجد الاقصى بجوار منارة الغوانمو (32) . وكان النائب يجلس في صدر الايوان الخاص المسمى ( ايوان الحكم ) ، ليحكم بين الناس وللنظر في شؤون النيابة ولكن نائب بيت المقدس خضر بك بنى مقعدا ملاصقا لايوان الحكم من جهة الشمال ، وصار يجلس فيه على عادة ( مجالس الحكم ) في الديار المصرية (33) . ودار النيابة هذه اقيمت مكان المدرسة الجاولية التي بناها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة 715 هـ . وخصصها للمذهب الشافعي ، وتحولت الى دار للنيابة في سنة 800 هـ ( 1400 م ) (34) .

---

28) المقريزي : السلوك ، ج 4 ق 3 ص 1200 .

29) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 15 ص 226 .

ملطية او ملاطية : بلدة كبيرة حصينة ، تقع على سفوح جبال اللكام ، وهي احدى الحصون المنيعة منذ العصر العباسي ، تكثر حولها التلال المكسوة بالاشجار والسهول الخصبة .

( لي سترانج : فلسطين في العهد الاسلامي ، ص 480 ) .

30) Cohens et Lexis, Population and Revenue in the towns of Palestine , P. 9.

31) مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج 2 ص 274 .

32) المنهاجي السيوطي : إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، مخطوط جامعة برنستون ، لوحة 745 . مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ج 2 ص 308 .

33) مجير الدين الحنبلي ، نفس المصدر ، ص 337 .

34) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 272 .

عارف العارف : تاريخ القدس ، ص 90 .

وكان لنائب بيت المقدس اقطاع خاص ، يشتمل على عدة قرى ، وذكرت المصادر ان من بين هذا الاقطاع مدينة اريحا في غور الأردن (35) . وفي احيان كان يجمع اليه نظر الحرمين الشريفين القدس والخليل فيطلقون عليه ( ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل ) وهذا امتياز لم يحظ به اي نائب من نواب بلاد الشام ، وبذا نال النائب قوة وتشريفا . وفي احيان كان النائب يجمع بين : كاشف الرملة ، وكاشف نابلس واستادار الاغوار ، ومتولي الصلت وعجلون ، كما حدث سنة 840 هـ ( 1436 م ) في دولة الاشرف برسباي ، الذي جمع للامير طوغان العثماني بين هذه الوظائف (36) . وهو اقصى اتساع بلغته نيابة بيت المقدس .

اما تولية النائب فكانت تتم بمرسوم سلطاني ، وعندما يتولى هذا المنصب او تجدد نيابته مرة اخرى ، يدخل المدينة مرتديا خلعة النيابة ، يحف به القضاة والمماليك واعيان المدينة فتزين الاسواق وتدق البشائر ، ثم يدخل المسجد الاقصى حيث يقرا المرسوم السلطاني على المجتمعين (37) . وكانت الطبلخاناة تدق على باب بيته كل ليلة (38) ، تماما كما يحدث للامراء الكبار في الديار المصرية .

ولنيابة السلطنة في بيت المقدس ثلاث ولايات :

1 ـ ولاية الخليل .

2 ـ ولاية نابلس .

3 ـ ولاية الرملة (39) ، وفي احيان كان المرسوم السلطاني ينص على توليته ( نيابة القدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس (40) .

وفي اواخر القرن التاسع الهجري ، تولى نيابة بيت المقدس نواب اشتهروا بالظلم والقسوة ، فأساؤوا الى النيابة وسكانها ، ومنهم من تولاها بمال بذله الى السلطان في القاهرة ، ففي سنة 892 هـ ( 1487 م )

---

35) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 75 ، 323 .

اريحا : عاصمة الغور ويعتبرها اليعقوبي من البلقاء ، وتبعد مسافة يوم عن القدس ( لي سترانج : ص 315 ) .

36) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، القاهرة ، 1970 ـ 1974 ، ج 3 ص 383 . مجير الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 2 ص 275 . الكاشف : من وظائف ارباب السيوف ، ويحكم على جميع البلاد التي يتولى كشفها فيجتمع الى الامراء ويمد السماط ويحضره القضاة وتقرا القصص بين يديه .

القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 25 ) .

الاستادار : من وظائف ارباب السيوف ، وتعني الأمير الذي يتولى قبض مال السلطان ، او الأمير وصرفه ، وكان يتولى امر البيوت السلطانية كلها ، وصاحبها امير كبير .

( القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ص 457 ) .

37) مجير الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج 2 ص 337 .

38) مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ص 280 .

39) الخالدي : المقصد الرفيع المنشأ ، لوحة 147 ( مخطوط ) .

مجير الدين الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج 2 ص : 275 ، 367 ، 373 ، 374 .

40) المقريزي : السلوك ، ج 4 ق 2 ص 975 . وانظر :

ابن الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج 3 ص 348 .

تولى النيابة ونظر الحرمين بالقدس الامير دقماق ( ببذل عشرة الاف دينار للخزائن الشريفة ، غير ما تكلفه لاركان الدولة ) (41) .

ومن الوظائف الأخرى الموجودة في النيابة نذكر : نائب القلعة ، ووالي المدينة والحاجب ، والدوادار . اما الوظائف الدينية فمنها : ناظر الحرمين الشريفين ، ومشيخة الصلاحية ، والقضاة والمحتسب وناظر البيمارستان . اما الوظائف الديوانية فنذكر منها :

**ناظر الجيش :**

وموضوعها التحدث في الاقطاعات الخاصة بنيابة بيت المقدس ، والكتابة بالكشف عنها ، واخذ خط النائب عليها بعد اخذ رايه ، وضبط الاقطاعات المقطعة للامراء والاجناد في النيابة . ثم الكتابة الى السلطان عن الاقطاعات المتوفرة عن اصحابها بالموت ونحوها ، حيث تحمل الى ديوان الجيش بالديار المصرية وبمقتضى ذلك يخرج المنشور السلطاني بشأن هذه الاقطاعات (42) . ولهذه الوظيفة ديوان خاص يثبت فيه المناشير الخاصة بالاقطاعات المقطعة في النيابة ، والصادرة من السلطان في القاهرة . ويساعد الناظر في مهمته كتاب وشهود (43) .

## جيش نيابة بيت المقدس

تردد في المصادر عن وجود قوات في نيابة بيت المقدس ، مما يؤكد ان جيشا خاصا وجد بها ، مثلها في ذلك مثل بقية نيابات بلاد الشام . ولدينا احصائية بعدد جيوش نيابات بلاد الشام اوردها ابن شاهين الظاهري ، ولكنه لم يورد شيئا عن عدد جيش بيت المقدس (44) . وبذا لا نستطيع اعطاء رقم صحيح لعدد هذا الجيش ، وان كنا نرى بالمقارنة بجيوش نيابات كل من حماه وصفد والكرك (45) ، ان جيش نيابة بيت المقدس كان بحدود الألف فارس ما عدا الرجالة ورجال القبائل العربية في جبل القدس والخليل وجبل نابلس .

وقد اشتركت قوات بيت المقدس في قمع الفتن في النيابة نفسها وفي خارجها وفي التجاريد والحروب التي خاضها المماليك ضد العثمانيين . ففي سنة 821 هـ ( 1418 م ) ثارت عربان بني عقبة في شرقي الاردن على نائب الكرك ، فطلب السلطان الى نائب القدس ونائب غزة نجدة نائب الكرك (46) الا انه في نفس الوقت اسر لنائب غزة القاء القبض على نائب الكرك ، فألقى النائبان القبض عليه حسب رغبة

---

41) مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 342 .

42) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 190 .

43) القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج 4 ص 31 .

44) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس 1894 م ص 104 ، 105 .

45) ابن شاهين الظاهري ، المصدر نفسه ، ص 104 . وللباحث : تاريخ شرقي الاردن ( القسم الحضاري ) ص 21 .

46) المقريزي : السلوك ، ج 4 ق 1 ص 446 .

السلطان . وارسل مع نائب القدس الى دمشق حيث سجن بقلعتها (47) . وفي سنة 827 هـ ( 1424 م ) اشتركت قوات القدس بقيادة نائبها الامير شاهين الذباح في قتال نائب دمشق تنبك البجاسي الثائر في دمشق . بالاشتراك مع قوات مصر وصفد . وتمكنوا من القاء القبض عليه . واعتقاله في قلعة دمشق (48) . ثم اشتركت قوات بيت المقدس مع قوات مصر وصفد في سنة 842 هـ ( 1438 م ) لمحاربة الأمير اينال الجكمي نائب دمشق الخارج عن الطاعة . فحاربوه وهزموه والقوا القبض عليه (49) .

وفي اواخر دولة المماليك الثانية قام المماليك بارسال التجاريد لمحاربة شاه سوار واعوانه الذين صاروا يضغطون بشدة على حدود دولتهم الشرقية والشمالية . وقد اشتركت القوات من بلاد الشام في هذه التجاريد . وخصوصا الرجال المجندون من جبل القدس والخليل وجبل نابلس (50) . ففي سنة 875 هـ ( 1470 م ) اشتركت قوات بيت المقدس بقيادة نائبها الامير يوسف الجمالي في قتال شاه سوار صحبة القائد الأمير يشبك الدوادار . فهزما شاه سوار والقيا القبض عليه . واستولت القوات المملوكية على البلاد التي كان قد استولى عليها . وكانت قوات بيت المقدس قد عادت من هذه التجريدة في 23 شعبان 876 ه (51) .

وفي سنة 889 هـ ( 1484 م ) بدات الخلافات بين السلطان الاشرف قايتباي والسلطان بايزيد بن عثمان ملك الروم (52) . فجهز الاشرف قايتباي القوات لقتال ابن عثمان وحليفه علي دولات اخي سوار . وارسل يطلب القوات من بلاد الشام . فقام الأمير جانم نائب القدس باعداد القوات من القبائل العربية واهالي جبل نابلس والقدس . وسار بهم الى الرملة حيث التقى مع الجيش المملوكي القادم من مصر بقيادة الأمير تمراز التمشي (53) .

---

47) المقريزي : المصدر نفسه . ج 4 ق 1 ص 451 .

48) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة . ج 14 ص 265 . ابن الصيرفي : نزهة النفوس ص 39 . 44 . وانظر : الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 274 .

49) المقريزي : السلوك . ج 4 ق 3 ص 1112 . 1113 . 1137 . 1138 .

50) وقد قتل شاه سوار الكثير من الجيش المملوكي . فابن اياس يذكر القتلى في احدى هذه التجاريد ( واما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشير والتركمات والغلمان فما امكن حصره ) .
( ابن اياس . بدائع الزهور . ط الشعب ص 413 ) .

51) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 291 . وانظر : ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 427 . 431 . 436 . ويصف ابن اياس نهاية شاه سوار ويذكر انه اقتيد الى القاهرة حيث اعدم على باب زويلة سنة 877 هـ .
( بدائع الزهور . 439 ) .

52) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 518 .

53) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 332 . ويقول ابن اياس ان هذه الحادثة اول الفتن مع ابن عثمان بسبب تعصب الأخير لعلي دولات . واستمرت الحروب بين العثمانيين والمماليك حتى انتهت بسقوط الدولة المملوكية .
( بدائع الزهور . ط الشعب . ص 522 ) .

واستمرت الحروب بين الطرفين . فأرسل السلطان في السنة التالية تجريدة لقتال ابن عثمان . وصفها ابن اياس بأنها ( من أعظم التجاريد ) (54) . ولكن السلطان اضطر الى جمع الاموال والرجال من انحاء الدولة ( وحصل للناس من المماليك ما لا خير فيه . من اخذ البغال والخيول وغير ذلك . ما حصل به الضرر الشامل وزيادة على ذلك ظلم ارباب الدولة (55) . حتى ان العلماء والفقهاء لم يسلموا من ذلك . ففي سنة 891 هـ ( 1486 م ) . قدم الامير مماي الخاصكي الى بيت المقدس ورسم على اكابر الناس واخذ منهم مالا . فأخذ من ناظر الحرمين الامير ناصر الدين بن النشاشيبي اربعة بغال وحصانا . ومن النائب جانم 200 دينار . ومن شيخ الصلاحية 30 دينارا ومن القاضي فخر الدين بن نسيبة 400 دينارا . ومن القاضي شهاب الدين الجوهري 300 دينار . وحصل للناس في بيت المقدس منه شدة (56) . ثم قدم بعده الأمير أقبردي الدوادار لتجهيز الرجال من جبل نابلس والقدس لقتال بايزيد بن عثمان ملك الروم . وصار يتنقل من مكان الى آخر لجمع الرجال ودفع النفقات لهم . فتارة ينزل بأرض قاقون وتارة بأرض اللجون (57) وتارة بالرملة . واثناء اقامته في جبل نابلس أبقى الشيخ خليل بن اسماعيل في مشيخة جبل نابلس على عادته (58) .

ولكن الصراع مع ابن عثمان والمماليك اخذ يزداد ويستشري . ففي سنة 893 هـ ( 1488 م ) امر السلطان باعداد القوات لمحاربة ابن عثمان . فأرسل الامير أقبردي الدوادار والقاضي زين الدين بن مزهر كاتب السر الى جبل نابلس والقدس لتجهيز القوات للاشتراك في التجريدة (59) . وحضر اعيان بيت المقدس للقائهما في الرملة . فسلم الأمير أقبردي لنائب القدس وقاضيها مبلغ خمسة آلاف دينار ليصرف الى الرجال المعينين من جبل القدس والخليل (60) . وعند تمام استعدادهم غادرت القوات بيت المقدس .

---

54) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 528 .

55) ابن اياس : المصدر نفسه . ص 529 .

56) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 335 .

57) قاقون : حصن يقع في فلسطين بجوار طولكرم . وكان يتبع لاقليم قيسارية الواقعة على الشاطىء . وورد ذكره في المصادر الصليبية كاكو . شاكو .

( لي سترانج . ص 438 ) .

اللجون : بلدة تقع في حد فلسطين مع الاردن على بعد 20 ميلا عن طبريا و 40 ميلا عن الرملة . وهناك اللجون الواقعة في البلقاء بشرقي الاردن على طريق الحج .

( لي سترانج . ص 463 . 464 ) .

58) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 335 . ويذكر ابن اياس ان أقردي حضر لاخماد الفتن التي حدثت بين عربان جبل نابلس والتي قتل فيها العديد من الامراء وذكر منهم الأمير أقردي بن بخشايش الا ينالي استادار الاغوار .

( بدائع الزهور . ط الشعب . ص 531 ) .

59) ابن اياس : بدائع الزهور . ط الشعب . ص 547 .

60) الحنبلي : الانس الجليل . ج 2 ص 342 .

في مستهل رجب ، وانضمت الى قوات جبل نابلس . ومنها سارت العساكر المقدسية والنابلسية لمحاربة ابن عثمان وحصلت ( الشدة بسبب التجاريد وذهاب الناس الى بلاد الروم ) (61) .

وقد عاد بعض رجال هذه التجريدة الى بلادهم دون اذن من قادتهم ، فعمد السلطان الى ارسال الامير اقبردي الدوادار الى جبل نابلس والقدس وطلب من نائب القدس دقماق استرجاع مال التجريدة ممن دفع اليه من الرجال . فاسترجع دقماق الاموال بالضرب والحبس والتعذيب ( وفعل بهم فعلا لم يسمع بمثله في الجاهلية ، حتى ان بعض الناس باع ابنته كما يباع الرقيق ، وتفاحش الامر وبقي الناس في شدة شديدة ومحنة لم تعهد بالارض المقدسة من قبل (62) . ومع ذلك فان تجهيز المحاربين من القدس ونابلس بقي قائما ، ففي سنة 895 هـ ( 1490 م ) ارسل السلطان الامير أزبك لجمع الرجال من جبل القدس وجبل الخليل ونابلس وغيرها من المناطق الفلسطينية للاشتراك في حرب بايزيد بن عثمان ، وحصل للناس شدة بسبب ذلك (63) . ثم انضمت هذه القوات الى قوات الجيش المملوكي القادم من القاهرة ، وقد وصف ابن اياس هذه التجريدة بأنها من نوادر التجاريد لكثرة من اشترك فيها من الامراء والاجناد (64) . وتؤكد المصادر ان الطاعون الذي اجتاح البلاد سبع مرات افنى عددا كبيرا من الجيش المملوكي (65) . لذا عمد المماليك الى تجنيد الرجال من نيابة بيت المقدس بسبب كثافتها السكانية ولما عرف عن رجالها من البأس والقوة .

وكان جيش نيابة بيت المقدس كغيره من جيوش النيابات الأخرى في بلاد الشام يشتمل على امراء واجناد ومماليك وكان هذا الجيش يصغر ويكبر حسب الظروف .فهو في تقديرنا الف فارس نظامي ما عدا الرجالة ( المشاة ) ومماليك الامراء ، ويبلغ احيانا الألوف ويضم عندئذ رجال القبائل والعشائر في جبل القدس والخليل وجبل نابلس ، الذي كان السلطان يصرف لهم النفقات والجوامك كما رأينا .

## التجارة الداخلية والخارجية في النيابة :

اشتهر بيت المقدس بأسواقه الكثيرة وابنيته العالية ، وصناعاته العديدة (66) . وكانت اسواقه زاخرة بصنوف السلع المختلفة ، منها ثلاث قصبات ( قيل انه لم يكن لغالب البلاد نظيرها (67) . ومن المعروف ان اسواق المدن الاسلامية في العصور الوسطى ، كانت متخصصة فكل سوق اختص بسلعة

61) الحنبلي : المصدر نفسه ، ج 2 ص 343 .

62) المصدر نفسه ، ج 2 ص 345 .

63) المصدر نفسه ، ج 2 ص 348 .

64) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص 559 .

65) Kedar B. Merchants in Crisis, Yale, U.S.A. 1976 p. 14.

66) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ، 1970 ، ص 56 . ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص 23 . لي سترانج ، فلسطين في العهد الاسلامي ، ص 97 .

67) ابن شاهين : المصدر السابق ، ص 23 .

معينة . فوجد في بيت المقدس سوق الزيت . وسوق القطانين . وسوق الطباخين (68) . وسوق النحاس . وسوق الخضر . وسوق العطارين . وسوق الحريرية . وسوق الفخر ( نسبة لفخر الدين صاحب المدرسة الفخرية ) وبه المصابن التي يعمل بها الصابون (69) .

وكذا وجدت الاسواق المتخصصة في كل من الخليل والرملة ونابلس (70) .

ويحيط بمدينة بيت المقدس منطقة خصبة واسعة . تقوم بتزويد المدينة المقدسة بكل حاجاتها من الفواكه والحبوب والزيوت . مثلها في ذلك مثل دمشق التي كانت تعتمد على معظم منتجات الاراضي الشامية كالزيت من نابلس . والصابون من نابلس والقدس وسرمين (71) . والتين من حلب والارز من بانياس . والحليب من بعلبك . والسكر من الاغوار . والفحم من عجلون . والرمان من الصلت . وبذلك كانت هناك حركة تجارية داخلية بين هذه المدن والمناطق المحيطة بها (72) .

وكانت الاسواق الاسبوعية التي تقام في المدينة فرصة للدرويين ورجال القبائل للحصول على ما يحتاجون اليه من سلع . مقابل مقايضتهم لمنتوجاتهم من الحبوب والفواكه والاجبان والبسط والسجاد والزيت والتين المجفف واللوز والجوز وغيره من السلع المختلفة (73) .

وفي العادة تنشط التجارة الداخلية في بيت المقدس في المواسم . ففي موسم الحج من كل عام . يحتشد في بيت المقدس اعداد كبيرة من مسلمي بلاد الشام وغيرها للاحتفال بالحج وزيارة المسجد الاقصى والصخرة . وقد كانوا من الكثرة بحيث يبلغ عددهم في بعض السنين عشرين الفا (74) . فتنشط الحركة التجارية في اسواق المدينة المقدسة . ويعم الخير ليس على القدس وحده بل على المنطقة المجاورة . حيث يهرع سكانها للاتجار مع وفود الزائرين . ولم يقتصر الأمر على هذا الموسم ( او السياحة الداخلية ) . بل يجتمع في البيت المقدس اعداد اخرى كبيرة من النصارى واليهود لزيارة اماكنهم المقدسة . وللاحتفال بمواسمهم الدينية (75) . لذا تقام في هذه المناسبات الاسواق الخاصة التي تعود بالنفع على تجار القدس

---

68) الحنبلي . الانس الجليل . ج 2 . ص 304 .

69) الحنبلي : المصدر نفسه . ص 53 . 54 .

70) رحلة ابن بطوطة . دار التراث . بيروت . 1968 . ص 56 . 57 .

71) سرمين : بلدة مشهورة تقع في منطقة حلب وتشتهر باشجار الزيتون وصناعة الصابون المسمى بالاجري الذي يصدر الى دمشق والقاهرة . ويصنع فيها نوع من الصابون المعطر ذو الوان متعددة يستعمل لغسل الوجوه والايدي . ( رحلة ابن بطوطة . ص 63 . لي سترانج ص 399 ) .

72) Lapidus, Muslim Cities in the Late Middle Ages, U.S.A. 1967, P. 17

يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن . القسم الحضاري . ص 55 .

73) ناصر خسرو ص 99 . ابن بطوطة . ص 97 . اي سترانج . ص 98 . 486 .

74) ناصر خسرو . ص 55 .

75) ناصر خسرو ص 55 . المقريزي : السلوك . ج 4 ق 2 ص 637 . 928 .

ابن شاهين : زبدة كشف الممالك . ص 23 .

والمتسببين من اهالي المناطق المحيطة . الذين يقصدون البيت المقدس في تلك المواسم . وهؤلاء النصارى يأتون من انحاء مختلفة من العالم بقصد الحج الى كنيسة القيامة فمنهم الشاميون والاوربيون والمصريون والاحباش . حتى ان الاحباش بلغوا في سنة 886 هـ ( 1481 م ) ثلاثة آلاف زائر (76) وفي سنة 922 هـ ( 1516 م ) بلغوا ثمانمائة زائر (77) .

وكانت المعاملات التجارية تتم عن طريق المقايضة او بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية المسكوكة في انحاء مختلفة من دولة المماليك . ومع ان المصادر القديمة اشارت الى وجود دار السكة في بيت المقدس ، الا اننا لم نعثر على ما يشير الى استمرارها في اداء دورها في العصر المملوكي . فالنيابات في بلاد الشام كانت تتعامل كما اسلفنا بالدنانير والدراهم المملوكية المضروبة في دمشق او القاهرة (78) . وتشير المصادر الى وجود الدنانير المصورة في بيت المقدس (79) . ولاشك ان تجار هذه المدينة كانوا يحصلون عليها عن طريق الحجاج الاوروبيين الذين كانوا يزورون بيت المقدس ، او عن طريق المبادلات التجارية التي كانت تتم بين بيت المقدس واوروبا عن طريق ميناء يافا على ساحل البحر المتوسط (80) .

لقد كانت العلاقات التجارية بين الدولة المملوكية والدويلات التجارية الايطالية والاوروبية في اوج ازدهارها ، وقد كان للتجار الأجانب في الموانىء الشامية والمصرية وكالات وقناصل لرعاية شؤونهم التجارية (81) . ولم يقتصر الأمر على الساحل بل بلغ نشاط التجار الاوروبيين الى الداخل الى دمشق وعجلون وبيت المقدس (82) . فوجد في بيت المقدس وكالة خصصت للتجار الاجانب (83) ، بالاضافة الى الخانات والقياسر التي كانت تؤجر التجار ويباع فيها اصناف البضائع المختلفة (84) . وذكرت المصادر عن وجود فروع لبعض الشركات التجارية الايطالية فالشركة الفلورنسية Bardi كان لها فروع عديدة في ايطاليانفسها وفي الخارج ففي الخارج وجدت فروعها في : برشلونة ، وقبرص ، وارغون ،

---

76) ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، القاهرة ، 1964 ، ج 1 ص 39 .

77) ابن طولون : المصدر نفسه ، ج 2 ص 5 .

78) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج 4 ص 199 .

يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن ، القسم الحضاري ، ص 78 .

79) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 305 .

ابن اياس : بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 554 .

80) المقريزي : السلوك ، ج 4 ق 1 ص 143 .

81) النويري الاسكندراني : الالمام بالاعلام ، ج 2 ص 137 ، 156 ، ويذكر انه وجد في الاسكندرية فندق الكيتلانيين ، وفندق الجنويين ، وفندق الموزة ، وفندق المرسيليين ، ج 2 ص 171 .

82) النويري : نهاية الارب ، ج 31 لوحة 91 ( مخطوط ) .

وللباحث . تاريخ شرقي الاردن ، القسم الحضاري ، ص 67 .

83) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 52 .

84) الحنبلي : الانس الجليل ، ج 2 ص 52 .

والقسطنطينية ، والقدس ، ولندن ، ومرسيليا ، ونيس ، وباريس ! وتونس (85) . ثم ان الوجود الاوروبي في بيت المقدس كان يتمثل في اعداد كبيرة من القسوس والرهبان في كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس (86) . وهذا يؤكد وجهة نظرنا القائلة بأن العلاقات الاقتصادية والتجارية والدينية بين بيت المقدس واوربا كانت مستمرة .

وقد كانت سلع بيت المقدس ومنتوجاته تصدر الى الاسواق الخارجية فبعض هذه السلع كان يصل لاسواق اوروبا كالبلسم من اريحا والحر من البحر الميت ، والزيت والصابون من نابلس والقدس ، والنبيذ من القدس والخليل ، والنيلة من وادي الاردن ، والسكر من الاغوار الذي كان يصدر للاسواق الخارجية الاوروبية على شكل عسل او باورات او مسحوق (87) . كذلك صدر بيت المقدس بعض منتوجاته وسلعه الى الاسواق الشامية والمصرية (88) . مثلها في ذلك مثل بقية المنتوجات الشامية التي كانت تجد طريقها الى مصر ، فمن بيت المقدس المصنوعات اليدوية من فضية وخشبية ، والزيت والصابون والفواكه ، ومن دمشق السيراميك والزجاج والمنسوجات الجيدة ، ومن الكرك البسط والاجبان والفواكه واللوز والجوز (89) . كل هذه السلع كانت تصدر الى مصر اما بحرا عن طريق الموانىء الشامية كصيدا وصور وبيروت وعكا ويافا ، او عن طريق بري عبر قطيا على الحدود المصرية الشامية ، حيث كان متحصل المكوس فيها الف دينار يوميا (90) . وفي القاهرة أقيمت للتجار الشاميين القياسر الخاصة والوكالات ، كما اقيمت الخانات على الدروب لخدمة القوافل التجارية القادمة من الشام الى مصر وبالعكس (91) .

اما المكاييل التي كانت مستخدمة في بيت المقدس ، فهي الغرارة ، والغرارة تساوي 12 كيلا ، والكيل يساوي 6 امداد (92) . وذكرت المصادر ان بيت المقدس وعمان انفردتا ( بالمد ) ، وكان مد بيت المقدس يساوي 3/2 القفيز ، والقفيز يساوي 4 ويبات او36 صاعا (93) . واستعملت مدينة الرملة ايضا القفيز

---

85) Sapori, Amando, The Italian Merchant in the Middle Ages, New York 1970, p. 51.

86) ابن اياس : بدائع الزهور ، ط الشعب ، ص 543 .

87) Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, pp. 394-395.

88) ابن شاهين ، المصدر السابق ، ص 23 .

89) المقريزي : السلوك ، ج 3 ص 530 . وللباحث : تاريخ شرقي الأردن ، القسم الحضاري ، ص 88 .

90) ابن بطوطة : الرحلة ، ص 5 .

91) ابن شاهين : المصدر السابق ، ص 23 .Lapidus, op. Cit. pp. 17-18

92) ابن الاخوة : معالم القربة في احكام الحسبة ، القاهرة ، 1976 ، ص 51 ، 82 القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 4 ص 181 ، 198 .

والغرارة مد ونصف تساوى ثلاثة ارادب مصرية . ( صبح الأعشى : ج 4 ص 181 ) .

93) لي سترانج ، ص 65 .

والويبة والمكوك والكيلجة . فالويبة تساوي مكوكين . اما المكوك فيساوي 3 كيلجات . والكيلجة تساوي صاعا ونصف (94) .

واستخدم المندسيون الرطل في اوزانهم . اما عن مساواة هذا الرطل بالدراهم فلا نعلم ذلك (95) . فاختلف الرطل من مدينة الى اخرى فرطل دمشق يساوي 600 درهم اما رطل غزة فهو 720 درهما . وفي الكرك يساوي 900 درهم . اما في عجلون فهو 1200 درهم (96) اما المقاييس فاستخدم في نيابة بيت المقدس ذراع القماش . وكان ذراع القماش الشامي يزيد على ذراع القماش المصري بمقدار نصف سدس ذراع (97) . اما دورها فكانت تقاس بذراع العمل وطوله ثلاثة اشبار بشبر رجل معتدل (98) .

## النشاط السكاني في النيابة :

تدل الدراسات الديموغرافية ان سكان بيت المقدس بلغوا في القرن الخامس للهجري ( الحادي عشر الميلادي ) 20,000 نسمة (99) . ثم ارتفع هذا العدد في القرن السادس الهجري ( الثاني والثالث عشر الميلادي ) . فبلغ 30,000 نسمة (100) . وبلغت مساحة المدينة المقدسة 720 دونما . فكثافتها السكانية اذن 42 شخصا للدونم الواحد (101) . ومن الملاحظ ان الكثافة السكانية في بيت المقدس كانت في المرتبة الثانية بين المدن الفلسطينية بعد عكا . التي بلغت كثافتها السكانية 50 شخصا الدونم الواحد (102) .

---

94) المقدسي : احسن التقاسيم . ص 181 . وللباحث : عمان حضارتها وتاريخها . عمان . 1979 ص 169 . ولمزيد من التفاصيل عن الأوزان انظر : ابن سلام . كتاب الاموال . القاهرة . 1968 . ص 688 ـ 699 .

95) فقد جاء ذلك في صبح الأعشى بياضا . ج 4 ص 199 .

96) ابن الاخوة . معالم القربة . ص 139 .

صبح الاعشى . ج 4 ص 181 . 198 .

97) القلقشندي : المصدر نفسه . ج 4 ص 181 .

98) المصدر نفسه . ج 4 ص 443 .

99) ناصر خسرو . سفر نامة . ص 56 .

لي سترانج . ص 99 .

100) Benvenisti, The Crusader in the Holy Land P. 26

101) Ibid., p. 26.

102) Ibid., p. 27.

وبلغ عدد السكان في المدينة المقدسة اوجه في القرن السابع والثامن الهجري ( الثالث والرابع عشر الميلادي ) . فبلغ سكان المدينة المقدسة آنذاك 40,000 نسمة . فكثافتها السكانية كانت 56 شخصا للدونم الواحد . وهي اعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المقدسة في العصور الوسطى .

ثم اخذت الكثافة السكانية في التدني . فبلغ سكانها في القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) 16,000 نسمة . ثم تدنى الى النصف . فبلغ في منتصف القرن التاسع الهجري ( 15 م 8,000 نسمة . ثم اصبح في اوائل القرن العاشر الهجري ( 16 م ) 3,000 نسمة . ثم اخذ في الهبوط مرة اخرى . ولكن سرعان ما عاد للارتفاع ثانية في العصر العثماني (103) .

وقد حدث تخلخل في الكثافة السكانية في فلسطين اثناء الغزوة الصليبية على بلاد الشام . فهجر السكان المدن الساحلية . اما المدن الداخلية فهجرها بعض سكانها ومع ذلك فبقيت مأهولة بالعرب الوطنيين . وهذا التخلخل حدث في الرملة وبيسان والخليل . اما بيت المقدس ففقد الكثير من سكانه نتيجة للغزوة الصليبية . فالمصادر اللاتينية تذكر ان الفرنجة قتلوا في المدينة المقدسة عشرين الفا . بينا قدرت المصادر الاسلامية العدد بسبعين الفا (104) .

وازداد سكان بيت المقدس في العصر الايوبي . ولكن الزيادة بلغت اقصاها في العصر المملوكي . فقد استقبلت المدينة المقدسة اعدادا من المهاجرين . من العراق والبلاد الشرقية الذين تركوا بلادهم امام الضغط التتاري . فلاذوا بمدن الشام : حلب وحماه ودمشق والقدس الذي استأثر بالعديد من هؤلاء

---

103) في نهاية القرن العاشر الهجري ( 16 م ) لم تكن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية عالية فديموغرافيتها كانت على الشكل التالي :

صفد أكبر المدن الفلسطينية : 12,000 نسمة .

القدس : 8000 نسمة .

غزة : 6000 نسمة .

نابلس : 4300 نسمة .

الخليل : 3500 نسمة

كفر كنا : 2850 نسمة

مجدل : 2800 نسمة .

لـــد : 2500 نسمة .

انظر : Hutteroth ET Abdulfattah Historical Geography of Palestine 1977 p. 45, 52.

104) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . ج 8 ص 189 .

Fulcher of Chartres
A History of the Expidition to Jerusalem
New York 1973 p. 121.
New York, 1973 P. 121
Benvenisti, op. Cit. p. 146.

المهاجرين (105) . كما ان الاستقرار والهدوء الذي نعمت به المدينة المقدسة ، كغيرها من مدن بلاد الشام حيث نعمت بدرجة من الثروة والازدهار والامن (106) . وللأهمية الخاصة التي اولاها اياها السلاطين المماليك ، كل ذلك زاد في نمو المدينة وازدياد عمرانها ، فانعكس ذلك على كثافتها السكانية فبلغ تعدادها 40,000 نسمة ، وهو اعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط .

ولكن الكثافة السكانية اخذت في الهبوط منذ منتصف القرن الثامن الهجري ( النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ) ، فقد اصاب بلاد الشام بل العالم كله ما عرف في المصادر القديمة بالفناء العظيم ( الطاعون ) (107) . وافنى هذا الطاعون اعدادا كبيرة من بلاد الشام وبادت مدن بأكملها مثل اللد والرملة وجنين (108) . فالنمو السكاني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر اقترب من التوقف ، ليس في بلاد الشام ومصر فحسب ، بل في العالم كله (109) . وقد شاهد ابن بطوطة ما فعله الوباء في مدن بلاد الشام ، كدمشق التي كانت تفقد يوميا الفي شخص (110) ، اما غزة ففقدت معظم سكانها . وتسبب الوباء في موت اعداد كبيرة من سكان بيت المقدس ، ومنذ ذلك الحين اخذت الكثافة السكانية في بيت المقدس في التدني حتى بلغت اشدها في اوائل القرن العاشر الهجري ( اوائل السادس عشر الميلادي ) .

ومما ساعد على تخلخل الكثافة السكانية في فلسطين . خاصة وبلاد الشام عامة الحروب والقحط والجفاف التي ضربت المنطقة في اوائل القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) . فالمقريزي يذكر ان تيمورلنك خرب بلاد الشام ومدنها وقتل من اهلها ما لا يحصى عدده ( بحيث اقامت القدس مدة اذا اقيمت صلاة الظهر بالمسجد الاقصى لا يصلي خلف الامام سوى رجلين ) (111) . ويذكر المقريزي ايضا في سنة 825 هـ ( 1421 م ) ، ان القحط والجدب اصاب حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر ، ونتج عن ذلك نزوح كثير من سكان هذه البلاد عن اوطانهم (112) .

---

105) السلوك ، ج 4 ق 2 ص 611 ، 1029 .
ابن الصيرفي : نزهة النفوس ، ج 3 ص 61 .

106) Lapidus, op. Cit. P. 16

107) وبسبب هذا الطاعون فقدت فرنسا 4/3 سكانها ، وايطاليا نصف سكانها والمانية فقدت مليون وربع شخص ، والطاعون الذي اجتاح اوروبا في القرن الرابع عشر كل عشر سنوات منع النمو السكاني .

108) المقريزي : السلوك ، ج 2 ص 774 .
يوسف غوانة : تاريخ شرقي الاردن ، القسم السياسي ، ص 269 ، 270 .

109) Lopez, R. The Commercial Revolution in the Middle Ages U.S.A. 1976, p. 29.
Kedar, Merchants in Crisis, Yale, U.S.A. 1976, p. i., 5.

110) ابن بطوطة : الرحلة ، ص 96 .

111) السلوك ، ج 4 ق 1 ص 225 .

112) المصدر نفسه ، ج 4 ق 1 ص 609 ، ويقول : ان من العوامل الهامة في عدم تزايد السكان العوامل الطبيعية كالطقس وكثرة الامراض وانتشارها . (Lopez, op. Cit p. 29).

ومنذ عام 833 هـ ( 1429 م ) عاد الطاعون مرة اخرى للمنطقة . فأصاب غزة والقدس والرملة وصفد ودمشق . وحمص وحماه وحلب . وهلك فيه خلائق لا يحصى عددها (119) . ويقول المقريزي في حوادث هذه السنة . ان الوباء والنزلات فتكت بالناس اذ كانت ( تنحدر من الدماغ الى الصدر فيموت الانسان في اقل من ساعة بغير تقدم مرضي . وكان اكثر هذا في الاطفال والشباب ) (114) . ولعل هذا الوباء الذي وصفه المقريزي هو نوع من انواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذا الشكل الخطير (115) . ثم عاد الوباء مرة اخرى فضرب المنطقة في سنة 841 هـ ( 1437 م ) فمات من جرائه خلق كثير . في دمشق وغزة والرملة والاغوار (116) .

وهكذا نرى ان بيت المقدس نتيجة للطاعون الذي اصاب المنطقة والعالم كله في منتصف القرن الثامن الهجري ( منتصف الرابع عشر الميلادي ) . فقد نصف سكانه . اي ما يقارب 20,000 نسمة . ثم اخذت الديموغرافية تتدنى في بيت المقدس وفلسطين نتيجة للغزوة التتارية المدمرة بقيادة تيمورلنك سنة 803 هـ ( 1400 م ) (117) ) وزاد في تدنيها القحط والجفاف الذي اصاب المدينة المقدسة والمناطق المجاورة سنة 825 هـ ( 1421 م ) بحيث هجرها كثير من سكانها (118) . اضف الى ذلك الطاعون والوباء ( الحمى ) التي دهمت القدس والعديد من المدن الشامية سنة 833 هـ ( 1429 م ) ! و 841 هـ ( 1437 م ) ادى الى هلاك خلائق لا يحصى عددها (119) . ونتيجة لذلك فقد القدس نصف سكانه . فأصبح عدد السكان في منتصف القرن التاسع الهجري ( الخامس عشر الميلادي ) 80000 نسمة . وفي اواخر القرن التاسع الهجري اصاب الطاعون بيت المقدس في السنوات 873 هـ ( 1468 م ) . و 881 هـ ( 1476 م ) و 897 هـ ( 1491 م ) وافنى ثلثي سكانه اي حوالي 5000 نسمة (120) . ففي اوائل القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) . لم يبق في القدس سوى

---

113) السلوك . ج 4 ق 2 ص 822 . 836 .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة . ج 14 ص 337 . 338 . 348 .

114) المقريزي : السلوك . ج 4 ق 2 ص 824 .

115) وربما كان هذا الوباء هو ما نسميه اليوم بالحمى الشوكية .

116) السلوك . ج 4 ق 2 ص 1029 . 1031 . 1034 .

117) السلوك . ج 4 ق 1 ص 225 .

118) السلوك . ج 4 ق 2 ص 609 .

119) السلوك . ج 4 ق 2 ص 822 . 824 . 836 . 1029 . 1031 . 1034 .

النجوم الزاهرة . ج 14 ص 337 . 338 . 348 .

120) وقد استنتجت ذلك من خلال دراسة قمت بها لعدد الوفيات في بيت المقدس في هذه السنوات .

انظر : الانس الجليل . ج 2 ص 286 . 318 . 361 .

3000 نسمة (121) . ثم بدات الديموغرافية في الصعود ، حيث بلغت في منتصف القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) 8000 نسمة (122) .

وكان سكان بيت المقدس اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود ، اما النصارى فكانوا (123) يشكلون نسبة كبيرة في زمن المقدسي ، واضاف انهم كانوا اصحاب السلطة في البيت المقدس وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس ، وان أعدادا كبيرة منهم تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيس (124) . وقد ازداد عدد السكان النصارى بعد الغزوة الصليبية لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة ، فقد قتل الصليبيون الالاف من سكان القدس المسلمين ، كما هجره اعداد من سكانه . وشجع الصليبيون ايضا هجرة النصارى الوطنيين الى القدس ، فتذكر المصادر ان قسما من نصارى البلقاء وعمان نزحوا الى القدس ، وخصص لهم هناك حي عرف ( بمحلة المشارقة ) ، لانهم قدموا من منطقة البلقاء الواقعة شرقي القدس . وبعد تحرير بيت المقدس سنة 583 هـ ( 1187 م ) عاد السكان المسلمون للقدس فزادت نسبتهم في العصر الايوبي ومن ثم في العصر المملوكي ، حتى اصبحوا يشكلون نسبة 70 ـ 80 ٪ من السكان (126) .

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من اصل عربي ، بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول اوروبا المختلفة والاحباش (127) ، وسكن هؤلاء الاديرة والكنائس العديدة في المدينة المقدسة وبيت لحم والتي بلغت عشرين كنيسة ، اكبرها كنيسة النيامة التي كانت تتسع لثمانية آلاف شخص (128) . ووجد في بيت المقدس حارة سميت بحارة النصارى بجانب باب الخليل (128) .

اما اليهود فكانوا قلة في العصر الاسلامي ، ففي القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) وجد ببيت المقدس عدد من اليهود ، كما وجد بها كنيس ( كنيش ) ، وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من انحاء متفرقة من العالم (130) ، وسكنوا في حارة خاصة اطلق عليها ( حارة

---

121) Hutteroth, op. Cit. pp. 45.52.

122) Ibid, P. 52

123) لي سترانج ، ص 97 ، 98 .

124) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص 55 .

125) القفطي : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص 248 .
يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن ، القسم الحضاري ، ص 115 ، عمان حضارتها وتاريخها ، ص 184 .
وانظر الانس الجليل ، ج 2 ص 54 .

126) Benvenisti op. Cit. P. 215

127) ناصر خسرو ، ص 70 .
ابن طولون مفاكهة الخلان ، ج 1 ص 39 ، ج 2 ص 5 .

128) ناصر خسرو ص 75 .

129) الانس الجليل ، ج 2 ص 53 .

130) ناصر خسرو ، ص 55 .

اليهود ) (131) . وفي فترة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا المدينة المقدسة ، ومعظم انحاء فلسطين (132) ، وامتد تعسف الفرنج لمنابر اليهود ، فدمروا منابرهم الثلاث ، واستخدموا حجارتها في بناء بيوتهم (133) ، وفي منتصف القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) ، قدم الرحالة بنيامين اليهودي الاندلسي الى فلسطين ، وزار معظم مدنها وقدم لنا احصائية ديموغرافية لليهود . فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود و12 يهوديا في بيت لحم ، وفي الرملة 3 يهود ، وفي يافا يهودي واحد ، وعسقلان 200 يهودي ، وفي طبرية 50 يهوديا . اما بيت المقدس فلم يجد فيه يهوديا واحدا . وكانت دمشق تمثل اكبر تجمع يهودي في بلاد الشام ، حيث كان بها 3000 يهودي (134) . ثم بدا اليهود يتسللون الى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج ، وزاد عددهم في العصر المملوكي ، وامتهنوا التجارة والصياغة والدباغة كعادتهم (135) . ولم يكن عددهم كبيرا ولكن تمتعوا بنفوذ قوي بسبب ما لديهم من ثروات طائلة . ففي سنة 868 هـ ( 1473 م ) حدث نزاع بين اليهود والمسلمين حول كنيس اليهود الموجود في حارتهم ، فقد ثبت لدى القضاة ان الكنيس محدث في دار الاسلام ، فاغلقوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه (136) . ولكن اليهود في بيت المقدس بزعامة كبيرهم يعقوب ، رفعوا امرهم للسلطان في القاهرة ، فأمر السلطان بعض العلماء في القاهرة بالنظر في هذا الأمر ، وحدث خلاف في الراي بينهم وبين قاضي الشافعية في بيت المقدس الذي منع اليهود من كنيسهم . الا ان السلطان ارسل مرسوما في سنة 869 هـ ( 1474 م ) الى ناظر الحرمين ناصر الدين بن النشاشيبي بتمكين اليهود من كنيسهم ، وعدم معارضتهم ، فمكنوا منه (137) . وقد اشيع في بيت المقدس ان اليهود بذلوا مبلغا كبيرا من الدنانير المصورة الى الخزائن الشريفة حتى مكنهم من كنيسهم (138) . ولما ورد ذلك لمسامع السلطان ، امر باعادة النظر في الامر والتحقق من امر الكنيس ، فعقد القضاة مجلسا آخر في المدرسة التنكزية ، وكان راي شيخ الاسلام كمال الدين ابن ابي شريف ان لا وجه لمنع اليهود من كنيسهم بغير مسوغ شرعي . وان من شهد بحدوث الكنيس في دار الاسلام عليه ان يثبت ذلك بمستند شرعي (139) . الا ان القاضي الشافعي تمكن من اثبات وجهة نظره بالشهود ، واصدر امره بمنع اليهود من كنيسهم مرة اخرى . ولم ينفذ

---

131) الانس الجليل ، ج 2 ص 52 ، 56 .

132) Martin, E. The Crusades, p. 127.

133) Benjamin, Early trafels in Palestine, p. 84.

134) Ibid, p. 91.

135) Benjamin, op. Cit. pp. 85-87

الانس الجليل ، ج 2 ص 305 .

136) النص الجليل ، ج 2 ص 302 .

137) المصدر نفسه ، ج 2 ص 304 .

138) المصدر نفسه ، ج 2 ص 305 .

139) المصدر نفسه ، ص 307 .

الامر عند هذا الحد ، بل توجه بعض العلماء الى الكنيس وامروا بهدمه ، فهدموا غالبه فتوجه اليهود للسلطان في القاهرة للشكوى (140) . فأرسل السلطان الاشرف قايتباي مرسوما بالقاء القبض على القاضي الشافعي وبعض العلماء ممن ناصروه في رايه ، ووضعوا في الحديد وارسلوا الى القاهرة (141) . فأهانهم السلطان وضربهم . ثم دعا الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير لعقد مجلس حضره القضاة الأربعة في الديار المصرية وبعض العلماء ، ودار البحث في امر الكنيس ، ووصف ذلك اليوم بأنه ( كان يوما مهولا بنصرة اليهود على المسلمين ) (142) . وقد استعمل الدوادار يشبك سلطاته واستخدم القوة لارهاب الحضور ، فعندما تكلم رجلان من طلبة العلم بما فيه نصرة المسلمين ، القى القبض عليهما واشهرهما ووضعهما في الزنجير (143) . ثم اخذ الامير يشبك يهدد ويتوعد ، عندئذ اصدر قاضي القضاة الشافعي في الديار المصرية ولي الدين الاسيوطي امرا بعدم جواز المنع الصادر من القدس لفساده ، ثم افتى بعض العلماء في الديار المصرية بجواز اعادة الكنيس . اما قضاة بيت المقدس فأمر السلطان بعزلهم ومنعهم من سكنى القدس (144) .

ونتيجة لهذه الفتاوي التي حصل عليها اليهود ، تقدموا يطلبون من السلطان بتمكينهم من اعادة كنيسهم ، وكان اكبر المساعدين لهم الأمير يشبك الدوادار الكبير بسبب ما بذلوه له من اموال طائلة (145) . واخيرا تمكن الأمير يشبك من اقناع السلطان باعادة كنيسهم ، فأصدر مرسوما بذلك ، فشرعوا باعادة بنائه في 11 ربيع الآخر سنة 880 هـ . ان اعادة بناء الكنيس اليهودي يدل على النفوذ الكبير الذي تمتع به اليهود في بيت المقدس ، ولدى السلطنة المملوكية بسبب امتلاكهم الاموال الطائلة وبذلهم الاموال للامراء ورجال الدولة ، وقد سموا اليوم الذي اعادوا فيه كنيسهم ( عيد النصر ) (146) . ومن هنا نرى ان اليهود في بيت المقدس رغم عددهم القليل الا انهم كانوا في العصر المملوكي يتمتعون بنفوذ قوي لدى الحكام ، ونفوذ مادي بسبب اشتغالهم بالتجارة والصناعة .

مما تقدم نستطيع القول بأن اهل الذمة من اليهود والنصارى تمتعوا في العصر المملوكي بتسامح ديني ، ومارسوا حقوقهم كاملة دون تعصب ، وزاولوا مهنهم بحرية تامة ، وعاشوا مع المسلمين في المدن والقرى . وان كنا نجد بعض النصارى يعيشون ويشكلون نسبة كبيرة في بعض المدن والمناطق ، مثل نصارى وادي موسى والكرك في شرقي الاردن ، والقدس والناصرة وبيت لحم وبيت جالا في فلسطين (147) .

---

140) المصدر نفسه ، ص 307 .

141) الانس الجليل ، ج 2 ص 308 .

142) المصدر نفسه ص 309 .

143) المصدر نفسه ص 309 .

144) المصدر نفسه ص 310 .

145) المصدر نفسه ص 312 .

146) المصدر نفسه ص 313 .

147) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص 247 .

ولم يكن النصارى بمنأى عن الاحداث السياسية في المنطقة ، فنجد ان نصارى الكرك والشوبك وقفوا الى جانب السلاطين المماليك ، فأيدوا الناصر محمد بن قلاوون في ثورته بالكرك ، وقدم احد التجار النصارى الشوابكة الى الظاهر برقوق مائة الف دينار لينفقها في اعداد الدوات والعساكر . لذا منحهم السلاطين امتيازات خاصة ، فنجد ان محمد بن قلاوون اصدر مرسوما في سنة 700 هـ ( 1300 م ) حدد بموجبه زي النصارى واليهود ، فألزم النصارى بلبس العمائم الزرقاء ، واليهود الصفراء ، والسامرة العمائم الحمراء ، ولكنه استثنى من ذلك نصارى الكرك والشوبك لما لهم من مكانة خاصة في نفسه . فبدوا يلبسون العمائم البيضاء اسوة بالمسلمين (148) . وفي عهد برقوق نال نصارى الكرك والشوبك حظوة لديه ، فاعفاهم من الضرائب والمصادرات اكراما لموقفهم ، ومساعدتهم اياه (149) .

وكان للنصارى في بلاد الشام بطرك اليه مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم بينهم ، واليه امر الكنائس والديارات والرهبان ومركزه دمشق (150) اما اليهود فكان لهم رئيس يتكفل بشؤونهم واقامة حدود التوراة بينهم مركزه دمشق ايضا ، اما السامرة فرئيسهم في نابلس (151) .

ويجدر بنا ان نشير مع نهاية هذه الدراسة ان الازدهار الاقتصادي الذي حظيت به المدينة المقدسة في العصر المملوكي ، واكبه نهضة علمية رائدة ، تمثلت في العديد من المدارس والزوايا والاربطة والخانقاوات ، فبلغت مدارس القدس تسعا واربعين مدرسة . فقد اصبح بيت المقدس منذ القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) قبلة العلماء ، فبعد سقوط بغداد وخروج العرب من الاندلس ، هاجر العديد من العلماء والفقهاء الى بيت المقدس واستقروا فيه ، فابن الصيرفي يقول : ( لأن بيت المقدس محط رحالهم وغاية مقصودهم وآمالهم ) (152) . وقد ترتب على ذلك ان صار القدس محط انظار طلاب العلم من جميع انحاء العالم العربي والاسلامي ، ونبغ العديد من علمائه في شتى صنوف العلم والمعرفة .

---

148) المقريزي : السلوك ، ج 1 ص 912 . ماير : الملابس المملوكية ، ص 121 .

يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن ، القسم الحضاري ، ص 116 .

149) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج 9 ص 260 .

150) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج 4 ص 194 . ج 12 ص 425 ، 426 .

151) المصدر السابق ، ج 4 ص 194 . ج 12 ص 428 .

152) ابن الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج 3 ص 61 .

**خاتمة :**

كان الاهتمام بالمدينة المقدسة قائما طيلة العصور الاسلامية ، وزاد هذا الاهتمام في العصر المملوكي بسبب الاخطار الخارجية التي كانت تهدد بيت المقدس ، الصليبية والتتارية . فجعلوها نيابة تابعة لدمشق ، وبعد غزوة بطرس لوزجنان على الاسكندرية رفع الأشرف شعبان رتبة نائبها الى طبلخاناه ، كي يتمكن من صد الاخطار التي تهددها . ولكن الظاهر برقوق استحدث في بيت المقدس نيابة مستقلة سنة 796 هـ ( 1393 م ) . وجعل فيها اميرا كبيرا وزوده بالرجال والعتاد ، كي يقف في وجه التتار والفرنج معا . تماما كما فعل الاشرف شعبان الذي استحدث نيابة الاسكندرية سنة 767 هـ ( 1365 م ) ورصد فيها القوات للوقوف في وجه الاطماع الفرنجية التي ما فتئت تهدد السواحل المصرية والشامية معا ، مستهدفة اعادة سيطرتها على ما فقدته في بلاد الشام وفي مقدمته بيت المقدس .

وجدت في نيابة بيت المقدس معظم الوظائف التي كانت في النيابات الاخرى فوظائف ارباب السيوف كان على راسهم النائب ثم نائب القلعة والوالي . وكان يضاف الى نائب القدس نظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل ، وهذا تشريف وامتياز اختص به نائب القدس دون نواب بلاد الشام . ثم هناك الوظائف الدينية والديوانية في قمتها شيخ الصلاحية وقاضي القضاة الشافعية .

وتمثلت قوة نيابة بيت المقدس بجيشها وقواتها الخاصة ، وجد هذا الجيش ، لحماية المدينة المقدسة ، والمحافظة على الامن والاستقرار في النيابة وخارجها . فاشترك جيش القدس في القضاء على العديد من الثائرين والمبتزين في بلاد الشام ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل وجهه المماليك للقضاء على اعدائهم خارج الحدود ، فاشترك في حرب شاه سوار وفي حرب العثمانيين . وكان جيش القدس يكبر ويصغر حسب الظروف ، بل انه بلغ في مرات عديدة الالآف واشترك في معظم التجاريد المتوجهة لحرب ابن عثمان .

وتمتعت نيابة بيت المقدس بازدهار اقتصادي ، فكانت اسواق القدس زاخرة بصنوف السلع المختلفة ، وصدرت سلعها وسلع المناطق المجاورة الى الاسواق الشامية والمصرية والاوروبية برا وبحرا . كما حظيت المدينة المقدسة بدخل هام من وفود الزائرين والحجاج ( السياحة الداخلية ) في المواسم ، حتى انهم بلغوا في بعض السنوات عشرين الف زائر . وكان للقدس علاقاته الاقتصادية الخارجية فوجد فيه وكالة للتجار الاجانب كما وجد فيه فرع لاحدى الشركات الايطالية التجارية الكبيرة .

وكان سكان بيت المقدس اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود ، وكان النصارى في بعض الاحيان يشكلون نسبة اكبر في المدينة ، الا ان المسلمين في العصر المملوكي اصبحوا يمثلون نسبة 70 ـ 80٪ من السكان . وازداد سكان القدس في العصر المملوكي فبلغ مجموع سكانه 40,000 نسمة ، وهذا اعلى رقم بلغه في العصر الاسلامي . ولكن التخلخل السكاني حدث في القدس بعد منتصف القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) بسبب الطواعين والاوبئة التي فتكت بسكانه .

اما اليهود فكانوا قلة في العصر الاسلامي ، وانعدموا في فترة الاحتلال الصليبي ، ولكنهم تسللوا للقدس بعد ان حرره صلاح الدين ، وقد لاحظنا ان عددهم لم يكن كبيرا في العصر المملوكي ، الا انهم تمتعوا بتأثير اقتصادي ونفوذ سياسي بسبب ما امتلكوه من ثروات طائلة ، وما بذلوه لاصحاب الدولة

حتى انهم تمكنوا بسبب ما بذلوه من أموال من اعادة بناء كنيسهم في القدس . وسمو اليوم الذى اعادوا فيه بناء الكنيس ( يوم النصر ) .

ان المدينة المقدسة ، بقيت طيلة العصر الاسلامي منار اهتمام الخلفاء والسلاطين والملوك . وبلغ هذا الاهتمام اوجه في العصر المملوكي . فجعلوا فيها نيابة مستقلة كغيرها من المدن الهامة في بلاد الشام . وبذا اصبح في فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد ، ونيابة القدس ونيابة غزة ، وفي هذا برهان ندحض به اراء بعض المستشرقين والباحثين الغربيين الذين يدعون ان القدس لم يلق الاهتمام والعناية في العصر الاسلامي ، وانه كان كأحد مدن بلاد الشام العادية .